محمد علي شمس الدين

الزلزال

الى بيروت

(١)

غنيت على وترين من الزلزال
فتراجع نحو الصفر دمي
واغرورق بالتعب الموّال .
آه ...
فرحي ، أبتاه ، تراجع نحو الصفر ،
... سأطلق هذي الصرخة ، ثمّ انام
لألوف مناقير الطير تنقر اجفاني .. أطلقها وأنام ..
سبقتني الحرب ..
وأعدائي مؤتمرون ، تدور بهم صهوات الخيل ،
فيقتنصوني
يأتي ابناء الامراء ، ويقتنصوني
وتفاجئني عجلات البدو الرحّل
تهوي كرياح في الماضي
كرياح ثابتة لا تتحرّك .. او ترحل
وأنا اتلمّس للثورة احلاما
واهرّبها في السر اليك .. فتقتل فيها او .. تقتل
اغمس كفيّ بالوحل وأرفعها ..
كالطائر في اعراس الفلاحين
واقول احترقت في الكف خطوط العرّافين
وتشابك في كبد الصحراء دم الفقراء ..
أبتِ ...
اشتعلت في الشمس مدينتك الورقيّه
واندكّ عمود الملح
وعرّش فوق الجدران دم الفقراء ، تسرّب في الفدران ، وغادر وجه البحر الى منبعه في الارض ، (عواصم تأخذ زينتها منه ، واخرى تتقاذفه او تتعمّد فيه وتغسل فيه ضفيرتها ..
أبتِ ..
ارتحلت في البحر طيور البحر ، وأسلم كل طائرة للموج ، سوى طفل ما انفكّ يلوّح بالكفين ويرسم اشرعة ..
ويسافر فوق مياه راكدة في القلب .. واذ ينحسر الماء ولا يبقى للطفل سوى غثيان البحر ، يحلق في كفيك خفيفا كالعصفور . فتحمله كفاك الى جزر عذراء ، يُعمّر فيها قرطاجة .. ثم يدمرها ..
وغداة يفاجئه القرصان غريبا ..
يرفع سبابته للشمس ، ويجذبها ..

فتهرول بين يديه مؤانية
فيطوف بها الافلاك ويقذفها ما بين الشرق وبين الغرب ، فلا تسقط الا في وطني ..
ابتاه .. اذن .. وطني .. وطني وطني وطني وطني
وطني .. وطني .. وطني .. وطني .. وطني ..
وطني .. وطني ..

في الريح (صدى) :
(وطني ..) ..
يتردد مثل صراخ في الابدية .. او مثل عويل في اقبية الجلادين ، اذن (وطني) المهجور الطفل العصفور القارب والنهر النازف دون مياه والحنجرة المبتورة والسمك المتحجر في قاع القلب .. ذهول فراشات في الضوء وحمحمة المهر المقطوعة منه قوائمه .. وخروج قطارات في الهجرة عن خطيها .. قدم .. وقطار دم .. وبيارق تخرج من امطار الخوف ..
الخوف الخوف .. الخوف .. الخوف .. الخوف
الخوف .. الخوف .. الخوف ..

أخاف واخرج في الساحات على اكتاف مظاهرة ..
وأوجه نحو الارهابيين هتافا أسقط في آخره ..
تتوزعني الساحات وتلبسني المدن الحضرية ..
البس جدران مدينتنا ..
واقول اذن وطني يتزين بي ..
فتزين .. (هجرتك الوحشة) اني امنحك الان وساما أبديا :
جرحا كهلال في الصدر تعلقه بين الكتفين وتخرج بي مزهوّا
فرصاصك يلبسني
واقول اذن وطني يتزين بي ..

ورصاصك يخرج منك ويدخل في الاحـــلام .
رصاصك يورق في الاحلام .. تباركت الاحلام ..
تبارك هذا الموت .. تبارك هذا الكأس .. تبارك هذا الوحل على شفتيك .. تباركت الامطار ..
... اليك اليك وازعم اني الثلج وانك شيء ما .. كالنـــار ..
أهرول نحوك مثل دموع عاشقة تفلت دون بكاء..
اتلمّس وجهك يا وطني ..

* * *

سبقتني الحرب اليكَ لتعلن وقت هبوطي فيك ..
يسود الان هدوءك تحت النبض ، واذ يتمزّق صدر الارض وتبقى مبتسمـــا ..
تتسرّب من كفيّ كما يتسرب رمل يجذبه الموج من الشطـآن ..
فاين أفرّ ؟ ولا يلجئني حجر في الارض ولا سارية أو علـــم ؟
أين أواريك من الاعداء ومن نظرات الاهل ومن عطف للغرباء تجاوز حدّ القتل .. تأهّب :
سيخاطبك الوسطاء .. تخاطبك الدول الكبرى ..
ويخاطبك الاعداء .. وأنت همست بأن الاهل هـــم الاعـــداء ..
سبقتني الحرب اليـــك ..
... سألبس خوذة جندي .. او اذهب مكشوف الراس ومكشوف الكتفين كجنـــدي الاغـــوار ..
احاربهم .. واموت ..
فهل ترفض موت الشعراء . وموت مغنيك ..؟ اذن :
سأقاتـــل حتى ترضى :
فاشهـــد :
مقتـــول فيـــك
ومقتول في الازهـــار
ومقتول في شفـــة الامطـــار
ومقتول في الجـــوع
ومقتول في عطش الينبوع
ومقتول في الشعـــر
ومقتول في الاحلام ..
واشهـــد :
سأناديك فتسمعنـــي
وأوزع فوق جبال الارض دمي كالطير .. فتجمعني
أغريب أنـــت ؟
لماذا سكت احيانا ؟ واثرثر مثل العصفور .. وأنت هواء يختزن الاصوات ؟..
ثقيلٌ هذا الصمت .. وعابقـــة نظراتـــك بالاسرار كينبوع او شجـــره ..
واراني حين اناديك اغمغم اسراري
وأقول كلاما مرتبكا .. او مشتبكا بالرمز .. وأنت الواضـــح ..
أنت الرمز .. وانت وضوح اللغز .. اتفهمني ؟
اني معترف بالاثم : كتبت الشعر ولم اكتبك ...
وحين قتلت الشعـــر وجـــدتك فيـــه .. فأنت الضدّ .. اتفهمني ؟
ومزجت رصاصك بالاحلام .. رصاصك يورق في الاحـــلام ..
تباركت الاحلام .. تبارك هذا الموت .. تبارك هذا الكأس .. تبارك هذا الوحل على شفتيك .. تباركت الامطار .. اليك اليك ، وازعم اني الثلج ، وانـــك شـــيء مـــا كالنـــار ..
اهرول نحوك مثل دموع عاشقة تفلت دون بكـــاء
أتلمّس وجهك يا وطني ..

(٢)

مثل عكاز على الريح اخترقت
جبل الصمت ، احترقت ..
في المساكين ، ومزّقت العويلا
مثل عبّاد الى الشمس ، والشمس طويـــلا
وزّعتني ضربة واحدة
بيـــن فأسين وبيـــن الشجره
دمي المشبوح بين البحر والشمس كنجم حائر أو قبره
دونما نار يضيء
بين جرحين من القلب الى القلب يضيء
أيها النهر الذي يمزج بين القلب والخنجر أقبل
ايهـــا النهـــر البطيء ..
هذه اغنية للعاشقيـــن :
حينما قلت ارجعـــي
يتها العذبة في ماء المحيطات ارجعي
اقبلي من وسن الليل ومن غفوة اطراف الشعب
اقبلي من شبك الدمع ومن حجر تحت العيون ..
بدّدتني الطعنـــات ..
هذه اغنيـــة للطعنـــات :
مائلا من تعبـــي
مائلا نحـــو انكساراتي قليـــلا
انحني من ضربة الفأس على الراس ولا اهوي قتيلا
طلقـــة واحدة في القلب لا تكفـــي
وجسمي قابل للطعنـــات
ان جسمي غابة من طعنـــات
وانا منتظرٌ وجه حبيبي
لابسا خنجره الورديّ في اللحم ، ومحنيا علـــى خمس مرايا
وردة تنبض في خمس مرايا ..
وهو يمضي آخذا شكل السفينة
دمه يلبس قمصاني ..وقمصان المدينة

ربما اخطأ عرّاف الضحايا
غير ان الدم لا يخطيء ..
هذا دمه الساطع في الشارع ينمو
دمه الباسق ينمو
دمه الشاهق حتى نجمة الليل الحزينه ..
دمه الرائب كالثلج على كأس الجبال
دمه الابيض حتى الاشنعال ..
يا بلاد الثلج اني دافيء حتى الجمام
وبقلبي ظمأ للزمهرير
يا بلاد الثلج . ما للثلج لا يسقط من مليون عام ؟
ودمي يقتله لفح الهجير ..
بلبلا .. أم .. سنبله ؟
يا بلاد الثلج اني قابلٌ لنمصله ..
فاستعدي واقطعيني وافطعيني
وا .. و .. ط .. ء .. ي .. ز .. ي
هذه أغنية للمتعبين ..
دائما منتظرٌ شيئاً ولا يأتي .. فمن يقرع بابي ؟
ودمي ينفر كالغزلان من غاب لغاب
كان لا يهدر في سمعي سوى القتلى .. ولا يصعد نحوي
غير أقدام الجنود
شرطه تصعد من اقبية الارض وتجتاز حدودي
شرطةٌ في درج السلّم او في خشب الكرسي او في العنق
المنسي بين السيف والنطع وهذا وطني
شرطةٌ تلبسني
أيها الضائع بين الآخرين
أيها الظامىء في صحراء نفط الامراء
انني آخر ينبوع لمجد الفقراء
فاحتضني
وتلمّس خطك الفاصل ما بيني وبين الآخرين .

(٣)

غنيت على وترين من الزلزال
فتقدّم نحو الشمس دمي
واغرورق بالفرح الموّال ..
آه ...
فرحي يغسل دمع الوحشة اذ يشتعل الجبل الشرقي ويلمع بطن السهل .. فابصر بين دساكره العمّال ترنّ معاولهم في الصخر ، يئنّ الصخر من اللذّة ، او يتفتّح مثل شعاع الجرح .. هنا وجعٌ لا يعرفه الا العشّاق اذا ملأوا ..
وأراهم يقتحمون النهر ، وينحدرون من البنبوع الى اطراف اناملهم في البحر .. تواكبهم اسماك النهر واخشاب الغابات واوحال كشرائح لحم بشريّ او كالحنّاء .. وأسرار تتدحرج من (صنّين) الى عمق الوادي ..
وارى فوق أصابعهم بصمات الرفض .. سيأخذ كل مجراه من المجرى .. وسيطلع من بين أناملهم بطلان . ارى (شاهين) و (بابك) يلتحمان على فرس واحدة .. فيفرّ حمار الوحش وتغزل بين الوديان النار وترتجف الاشجار : لقد سبقتني الحرب الى وطني ..
وارى مدنا تطفو او تتراكم كالغادورات على قدم الانهار أرى الانهار تعود مفيدة . وتساق وتعرض في الاسواق كجاريه .. يتحسسها التجار .. واد يتشقق في شفه الغبراء لها عطش .. تعلو بينهما الجدران ويفصل كل محب عن محبوبته ..
واحبك ...
.. حين اتيتك في منتصف الدهر افتش عنك وجدت رصاصا محفلا .. وشوارع تمضع وهوهه الدم .. وارصفه حرساء .. وابنيه ترحل او تتهاوى مرهقه ..
ووجدتك في وجهين فلم أعرفك ..
صرخت وعلقت الصرخة فوق سمائك مثل الشلال ..
وقلت اذن سيقسني الحرب الى وطني ..
حمراء .. وتحصنك الرايات .. أرتب وجهك ثانية:
وأعيد الانف الى العينين الى الشفتين الى الرئتين
الى القدمين الى قلبي ...
وأذيب عناصرك الاولى في الشمس .. اغوص الى اعماق خليتك الاولى ..
وانام على عتباتك مرتجفا
كخريف في اول غابته
أتربص بالنجم القطبي متى يأتي
نجم يترمّد في صحن الليل ونجم يورق في صمتي
اتربص بالدبّ القطبي متى يأتي
سبقتني الاسماء :واعيتني قسماتك حين أجمّعها ..
و ي .. ب .. ء .. تر .. ها الطوفان ..
أمدّ يدي نحو الاصداف : أقول هنا بيروت هنا صيدون هنا بغداد هنا قرطاجة .. ثم يفاجئني سيلٌ .. وتظلّ فلسطين معلّقة تحت الاصداف ..
فاجمع اصدافك واتبعني ..
سأواريك من الاعداء بمذبحة
والمّ شتاتك من ارحام نساء طافحة بأنوثتها ..
يأتين على أكتاف بعولتهنّ .. وتسبقهنّ قباب الشمس ..
واذ يرتسم التبغ على الاحداق ، وتضطرم الصبوات ..
يصعّد عرقٌ من اعماق رجولته .. فيلامس اوج النهد .. يلامس اوجك .. اوج القبّة .. يبدأ رقصا دمويا لا يهدأ حتى تلتئم الارض وتلتحم الازمان ...
ويبدأ وقتك يا وطني .